1

الفصل الأول

الطفولة المبكرة

أ. أهميتها.

ب. خصائصها.

الطفولة المبكرة

أ - أهميتها الخاصة:

إن ما يلفت النظر في العملية التربوية هو اختلاف الآراء في فهمنا لحقيقة مهمة المدرسة ودورها الذي تلعبه في حياتنا، وفي اكتسابنا المعرفة، وفي قدرتنا على اكتشاف مواهب الطلبة، ومن ثم تفعيل هذه المواهب والقدرات. لتبلغ حدها من النمو والنضج، وتوظيفها في حياتهم العملية وفي بنائهم لمستقبلهم، والنجاح في مسيرة حياتهم.

إن الفكرة السائدة والتي لاتزال، هي أن المدرسة هي العامل الأول والأهم في إكساب الفرد المعرفة واشباع ما عنده من ميل للاكتشاف وحب للاستطلاع، وهي الحجر الأساس وركن الزاوية في بناء مستقبله ونوع هذا المستقبل، وشق طريقه في حياته وتقرير النهج الذي يسير عليه في هذه الحياة ليحقق هدفه منها.

كما أنها ترى أن كل من لايلتحق بالمدرسة ومن لايتفوق فيها هو شخص غير ذي بال، ولا أهمية له تذكر في دوره في الحياة، وفي دوره في المجتمع الذي يعيش فيه، ونتيجة لذلك قد تتدنى نظرة المجتمع إليه، باعتبار أن كل من لايلتحق بالمدرسة، وكذلك كل من يفشل فيها، هو شخص فاشل في الحياة، ولادور له فيها.

إننا وبهذه النظرة في الحكم على الفرد، ورسم صورة مستقبله، نكون قد أهملنا العوامل الأخرى في بناء كيانه، ورسم مستقبله، ودوره في الحياة وقدرته على اكتشاف حقائق الحياة، والتكيف مع ظروفها والإفادة مما يكتسبه فيها من خبرة وتجربة تكون له سنداً في شق طريقه نحو حياة فضلى ومستقبل أفضل. لأن مانتعلمه في المدرسة، وعن طريقها لا يعدو أن يكون تعلم القراءة والكتابة، والرموز العددية في الحساب، وهذا كله لايعدو أن يكون أحد الأساليب وليس كلها الذي نكتسب به المعرفة، وسعة الإطلاع والتزود بالخبرة والمعرفة العملية التي نكتسبها من خلال تجربتنا في الحياة، والوقوف على أسرارها ومن ثم تفعيل دورنا في مجرى الحياة بشكل عام، وحياتنا بشكل خاص.

إن الحياة وبأحداثها ووقائعها هي المعلم الأول والأهم لنا، بما تطرحه علينا من مشاكل

حياتية متعددة، علينا أن نتصدى لها، ونجد لها الحل المناسب والتغلب عليها، لتكون مسيرتنا في الحياة على نهج واضح، بعيد عن الشك والغموض، وهي التي تكسبنا الخبرة العملية، والتجربة الفعلية اللازمة لنا بما يعود علينا وعلى مجتمعنا بالنفع والفائدة. باعتبار التفكير وسيلة أخرى فاعلة من وسائل اكتساب المعرفة، وتوظيفها، كما أنه – سبحانه – أمدّنا بوسائل فطرية متعددة نستغل بها ما في بيئتنا، وما يقع فيها تحت سمعنا وبصرنا، وتسخيره لما فيه مصلحتنا، وتيسير سبل معاشنا، وما يجلبه لنا ذلك من متعة مادية وأخرى فكرية، وثالثة روحية، بفضل ما أودعه الله فينا من قدرة فطرية نكتشف بها بواطن الأمور، ونتعرف بها على أسرار الحياة بطريق يختلف عن الطريق الذي نستخدم فيه عقولنا، وما نتسلح به في ذلك من الأساليب العقلية والمنطقية وما تتضمنه من استنتاجات، واستدلالات، لأننا بهذا الأسلوب نهتدي إلى أفكار وحلول دون مقدمات، ودون سابق انذار. وكذلك دون أن نتعلم في مدرسة أو معهد على يد معلم أو مشرف.

ألا ترى الطير كيف هداه الله سبحانه ليبني عشه، ويتزاوج ويتكاثر حفظاً لبقاء النوع، واستمرار الحياة وكيف يقوم على تربية صغاره بدافع فطرته التي خلقه الله عليها – وحين تبلغ أشدها – تعلمها الطيران واكتساب سبل العيش، ليدخل الحياة من باب واسع، ليقوم بدوره فيها، كما قام مَن قبله بذلك أجيالاً تتلوها أجيال. وهكذا دواليك. كل ذلك دون معلم أو مرشد ودون مدرسة.

ثم ألا ترى الطفل كيف يتعلم اللغة بفضل مقتضيات الحياة في هذه المرحلة المبكرة من عمره وبحكم مايسمعه منها من أهله وجيرانه وأنداده، من أصوات وكلمات لها دلالتها المعنوية والفكرية، وتصبح فيما بعد وسيلة التفاهم بينه وبين الأفراد من حوله على اختلاف طبقاتهم وانواعهم، ومستوياتهم، ثم تصبح هذه الأصوات والكلمات وكذلك الرموز فيما بعد وسيلة التواصل والاتصال في نقل الافكار وفي استقبالها من الغير، ونقلها إليهم. كل ذلك قبل أن يعرف القراءة والكتابة، وقبل أن يلتحق بالمدرسة، أو يتتلمذ على أيدى معلم ألم يكن العرب في جاهليتهم يرسلون أطفالهم إلى البادية ليتعلموا فيها اللغة الفصحى نقية صافية دون أن تلحقها الشوائب، أو يختلط بها ما يعكر صفوها، أو يحوط معناها اللّبس والغموض. وذلك عن

طريق الممارسة والاستعمال وبحكم الفطرة وذلك دون معلم، ودون أن يلتحقوا بالمدرسة ، بينما نرى في وقتنا الراهن أننا نتعلم لغتنا الفصحى هذه عن طريق المدرسة ومن بطون الكتب، ولسنوات عديدة. دون أن يتأصل ذلك في نفوسنا بشكل ملموس له أثره في اتقاننا لهذه اللغة سواء أكان ذلك نطقاً، أم قراءة، أم تعبيراً، أم كتابة.

ومع أن الله سبحانه خلق لنا الحواس المختلفة. لنفيد منها. ونتعلم الكثير عن طريقها حتى تجعل من المعرفة المجردة معنى محسوساً لنا ندركه بعقولنا بعد أن أدركناها بحواسنا، فكانت هذه الحواس أدوات تربوية تساعدنا على أن نتعلم. وعلى أن نوظف مانتعلمه، وتنقلنا في ذلك من المحسوس إلى شبه المحسوس ومن ثم إلى المجرد من الأفكار والمعاني. ومن هنا نرى أننا أنه وعن طريق الممارسة والاستعمال. وباستخدام العقول والحواس قادرون على أن نتعلم الشيء الكثير، وأن نهتدي إلى الشيء الكثير الذي له مساس بحياتنا، وله أثره وفاعليته في بناء مستقبلنا، وهذا مادعا بعض التربويين إلى أن يدعو لعدم اقحام الأطفال ليتعلموا الرموز الكتابية والأرقام الحسابية المجردة.

وبخاصة في باكورة حياتهم قبل أن يكون لهذه الرموز معنى في أذهانهم، ويدركونه بعقولهم عن طريق الممارسة والتجربة. وبخاصة إذا استدركنا أن الانسان نفسه هو الذي اخترع الأرقام الحسابية والحروف الهجائية والقراءة والكتابة قبل أن توجد المدارس. ويكون هناك معلمون يعلمونه فيها.

وليس هناك ما هو أدعى لبناء شخصية الفرد، ورفع روحه المعنوية، وبناء ثقته بنفسه من أن نوليه الرعاية والاهتمام، فنحترم ما عنده من كفايات وقدرات مهما كانت، وأياً كانت، ومهما كان مستواها وأن نعمل على اكتشافها ومن ثمّ العمل على تنميتها وتطويرها، وأخيراً توظيفها لتصبح لها مكانة محسوسة وملموسة ولها أثرها البارز في حياتهم العامة والخاصة، بعد أن نوفر لها الجو التربوي المناسب الذي يساعدها على البروز والظهور ومن ثم على النمو والتطور وألا نكون قد هضمنا حق الطفل بإهمالنا له وإهمالنا لما عنده من خصائص وميزات هي عماد حياته وعماد بناء شخصيته، ومستقبله في الحياة، ذلك أن الإهمال وعدم الاستعمال والتفعيل لأي عضو عند الفرد وأي قدرة من قدراته تؤدي إلى الضمور فالشّلل وكأنها لم توجد ولم تكن.

علينا أن نعيد من نظرتنا المتدنية إلى الطفل باعتباره قاصراً لاحول له ولاقوة والتي درجنا بموجبها في معاملتنا له ولما عنده من مواهب وقدرات، وأن عليه أن يعتمد علينا في كل شأن من شؤونه وإلى أن يبلغ أشده، كما علينا ألا نبالغ في مهمة المدرسة ونظرتنا إليها وإلى أثرها على مستقبلنا باعتبارها هي صانعة المستقبل، وأنها هي كل شيء في حياتنا.

علينا أن ننظر للأمر من زاوية معتدلة، بعيدة عن التطرف والتهاون فلا نغالي بأهمية المدرسة لدرجة تخرجنا عن حد الاعتدال، ولانحطّ من قدرات أطفالنا ومواهبهم لدرجة تميل بنا إلى إغفالها أو إهمالها وكأنها أمر تافه لا أثر له. فلا يستحق منا أي اهتمام أو رعاية.

كما علينا أن لانبالغ ونتطرف في تقدير الطفل وما عنده من مواهب وقدرات، لدرجة تخرج بنا عن حد الاعتدال، وإنما نعطيها حقها من الرعاية والتقدير والاهتمام فنقبلها على علاتها، وكما هي دون زيادة أو نقصان. وتكون نظرتنا في ذلك إلى الحقيقة والواقع أقرب منها إلى الجنوح والخيال.

أن ما نتعلمه من الحياة، ومانستفيده منها من البصيرة النافذة هو أضعاف مانتعلمه من القراءة والكتابة، وأكثرها حدساً، وأكثرها صدقاً.

إن لدى الأطفال أسلوباً للتعلم يتواءم مع ظروفهم الخاصة، ومع ما يحيط بهم، فهم يستخدمون عقولهم ويفكرون بها بشكل طبيعي وبمستوى جيد إلى أن نخرجهم – نحن الكبار– من هذه الدائرة الطبيعية في التعلم والتفكير وننأى بهم عن الاسلوب والطريقة الفطرية التي يتم بها تعلمهم وتفكيرهم.

وأكثر ما تكون العقول فاعلة في معظم الحالات حين نستخدمها بأسلوب معين، فهي لا تكون فاعلة في جميع أساليب التفكير التي نفكر فيها. وهي كذلك لاتكون فاعلة في جميع الحالات التي نتصرف فيها للتفكير، ونكّد أذهاننا في إعمالها وتفعيلها. فهي في بعض الحالات أكثر فاعلية منها في حالات أخرى. وهي أكثر فاعلية إذا ما فكرنا بأسلوب معين مما لو فكرنا بأسلوب آخر، ولدى الأطفال الرغبة الخالصة ليتعلموا بشكل أفضل مما يتعلمه الكبار والراشدون؛ بل، وبشكلٍ أفضل مما يتعلمونه هم أنفسهم حين ينمون، ويبلغون سن الرشد ويعود ذلك إلى أنهم يستخدمون عقولهم بطريقة خاصة، وبأسلوب خاص.

وكثيراً ما نردد وبكل فخر واعتزاز أننا نبعث بأبنائنا إلى المدرسة ونعلمهم أن يفكروا بالاسلوب الذي يجب أن يفكروا به في حاضرهم، بل وفي مستقبلهم. لكننا في واقع الأمر وبهذا الاسلوب نكون قد أفضينا بهم إلى سوء التفكير بدلاً من حسنه. ذلك أننا لانتيح لهم بأسلوبنا هذا أن يُعملوا عقولهم وأن يفكروا بشكل حرٍ طليق ويؤكدون فيه شخصيتهم، ويعملون على تعزيزها وبما يتفق مع مواهبهم وقدراتهم والنهج الذي يسيرون عليه ويتواءم مع هذه المواهب والقدرات.

إن النهج الذي سار عليه غيرنا في حياته، ونجح فيه، لايشترط بالضرورة أن ننجح نحن فيه إذا ماسرنا عليه، ونهجنا نهجه، فلكلٍ منا اسلوبه الخاص في التفكير، وله ظروفه الخاصة التي تحيط به، كما أن لكلٍ منا مواهبه وقدراته الخاصة كذلك، التي تجعل منه شخصية مستقلة، وكياناً خاصاً كذلك، يتميز به عن الآخرين، ويكسبه هويّتَهُ الخاصة التي بها يُعرف من غيره، ويتميّز بها عنهم.

إن هذا لايعني أن نطرح ماقام به غيرنا جانباً، ونهجه الناجح في تفكيره وفي رسم حياته، وتعامله مع أحداثها ومع الآخرين، وإنما علينا أن نفيد من خبرتهم وما بلغوه في تجاربهم من نجاح بالقدر الذي يتواءم معنا ويتفق مع ظروف حياتنا، وقدراتنا ومواهبنا فتكون خبرتهم بذلك عاملاً مساعداً لنا وليس الطريق الأصيل الذي لانحيد عنه.

والأسوأ من ذلك كلّه، أننا وبالأسلوب الذي نستخدمه معهم في استعمال العقول، واسلوب التفكير الذي نمارسه معهم في عالم الحقيقة والواقع، يُدخل إلى روع الغالبية منهم أنهم أعجز من أن يفكروا ويستخدموا عقولهم داخل المدرسة أو خارجها وبخاصة اذا كان الأمر يتعلق بالرموز والنظم الرمزية والأفكار المجردة، فضلاً عن أنه تتشكل لديهم فكرة مفادها أن لاغنى لهم عن المعلم سواء أفي تعلمهم أم في تفكيرهم، مما يفقدهم الكثير من الثقة بأنفسهم. وبما حباهم الله به من مواهب وقدرات الأمر الذي يعود عليهم ذلك بأسوأ العواقب وبروح معنوية متدنية، فضلاً عن تدني الفكرة الذاتية لهم والنابعة من هذه التصورات الخاطئة التي يشكلونها عن أنفسهم نتيجة للأسلوب الذي نتعامل به معهم في تعليمنا لهم، وكيف يفكرون وقد يفضي بهم ذلك الى انهم أناس أغبياء ذوو قدرات متدنية يعجزون عن مجابهة المشاكل الصعبة أولاً،

والتفكير في الأمور بعمق، وبصيرة نافذة ثانياً، كما ينأى بهم ذلك عن عدم تقبُّل الجديد والإقبال عليه وبغض النظر عن أي اعتبار آخر.

إن القلة القليلة من الطلبة هم الذين يحرزون تفوقاً ملحوظاً في دراستهم وتعلُّمهم بهذا الاسلوب الذي نفرضه عليهم ولكنهم لا يستخدمون عقولهم ليفكروا أو يتعلموا وإنما يُعلمونها في إيجاد طريقٍ للتخلص مما نعرضه عليهم وليتحللوا في أقرب فرصة ممكنة من هذا العمل المرهق وغير المرغوب فيه الذي فرضناه عليهم، والذي لايؤدي بهم إلا لنتائج قصيرة المدى وليس إلى أخرى بعيدة المدى، ومن ذلك ترفيعهم إلى صف أعلى مما هم فيه أو انتقالهم من مرحلة تعليمية إلى مرحلة تعليمية أخرى أعلى منها.

وقد يؤدي بهم هذا النوع من التعلم، وهذه الاستراتيجية إلى الإحباط على المدى البعيد، وإلى التقوقع داخل الذات، وقد تؤدي بهم إلى تدمير الذكاء، وتعطيله بدلاً من تنميته وتفعيله، كما يعيق الكثيرين على أن ينموا نمواً حقيقياً، وإنما ينشأ الواحد منهم وكأنه صورة مصدقة عمن قاموا على تنشئته ورعايته. وهذا هو بعينه الفشل الحقيقي الذي يحدث في المدرسة، والذي قلَّ منا من يتفاداه، ويتجنبه.

وحين نستطيع أن نجعل من المدرسة، كذلك الحال من الروضة مكاناً نستخدم فيه اسلوب التعلم والتفكير ونعمل على تطويره، لنجعل منه اسلوباً أقرب الى طبيعة الأطفال وإلى الظروف التي تحيط بهم نكون بذلك عندها أقدر على الحيلولة دون المدرسة أو الروضة ودون الفشل الذي يلازمها. وعندها تصبح المدرسة والروضة مكاناً لتفعيل جميع مظاهر النمو على اختلاف أنواعه وأشكاله، من حب للاستطلاع والاستكشاف وبناء الثقة بالنفس، والنزعة الى الاستقلال، وزرع بذور أسس الشجاعة الأدبية والقدرة على الصبر والاحتمال، وتنمية القدرات والكفايات والقدرة على الفهم والاستيعاب مع سهولة التكيف، وسعة الحيلة وحسن التصرف.

ان كل مانراه الآن، بالنسبة لعملية التعلم والتعليم، سواء أفي المدرسة أم في الروضة على أنه آخر المستجدات، قد يبدو لنا بعد فترة من الزمن أنه خاطئ، أو اصبح غير مناسب ولكنا قد نخطو في هذا السبيل خطوة لها أهميتها إذا ماتوصلنا إلى فهمٍ أفضل لطبيعة الأطفال، وما هم عليه بفطرتهم، وتنشئتنا لهم بما يتفق وهذه الفطرة، ومايحيط بها من ظروف وأحوال، ونتجنب بذلك بعض مايلحق بهم من أضرار وما نكون قد ارتكبنا بحقهم من أخطاء وآثام.

وكل ما يمكن أن يقال في سبيل هذا الصدد هو أن تقوم علاقتنا مع أطفالنا على الثقة المتبادلة، النابعة من ثقتنا بأنفسنا، وليست قائمة على الشك والريبة، وإن كان الكثيرون منا يفتقدون هذه الثقة، ويتعاملون مع الأطفال معاملة وكأنها نسخة طبق الأصل عما سبق أن عاملهم به آباؤهم، وبنَوأْ بها علاقاتهم وهذا هو واقع الأمر وحقيقته علينا أن نتعلم أنه عندما نخيف الطفل يعيش في جو من الخوف والقلق، وإذا عاش في جو كهذا نكون قد عملنا على إيقاف قنوات التعلم عنده، وإبقائها مقفلة. كما علينا أن ندرك أن عنايتنا بالأطفال أمر ممتع، وأنهم جديرون منا بكل رعاية واهتمام. وأن يكونوا قريبين منا. بعقولنا وقلوبنا وملاحظاتنا لهم، الأمر الذي سيزيد من اهتمامنا بهم، وتعرُّفنا على المزيد عنهم، والوقوف على حقائق عنهم لم تكن معروفة لدينا من قبل. وكلها أمور تصلح أن تكون غذاء للعقول والتفكير. وهم بحاجة إلى أن نقدم لهم شيئاً جديداً أكثر من حاجتهم إلى التوسع في معارف قديمة قد تبعث في نفوسهم الشك والريبة بدلاً من اليقين.

وفي مراقبتنا للأطفال وملاحظتنا لهم ولتصرفاتهم بشكل جدي وهادف مايبعث على الاستكشاف والوقوف على أشياء جديدة. لم نكن نعرفها من قبل. الأمر الذي يجعل من حياتهم. وما يدور حولها أمراً له معناه. وله قيمته وأهميته، مما يساعدنا على تفهمهم، وعلى تنشئتهم ورعايتهم الرعاية الصحيحة، وبالشكل الصحيح. ففي أقوالهم وأفعالهم مما يبعث على التفكير أكثر مما تبعثه أقوال الكبار –مثلنا آباء ومصلحين – وأكثر متعة في الوقوف على حقيقتها. والدوافع التي أدت إليها والنتائج التي نجمت عنها.

إن حبنا للأطفال والاستمتاع بصحبتهم ليست جريمة نكراء. غير أنه من المؤكد أن فقدهم إلى حُبنا ومودتنا وإلى عطفنا عليهم خسارة كبيرة لاتعوّض بالنسبة لنا، ولا بالنسبة لهم.

وتعتبر مرحلة الطفولة من أهم المراحل التي يمّر بها الإنسان في حياته، نظراً لما عندنا من قابلية للتأثر الشديد بما يحيطه من عوامل مختلفة تؤثر على نموه بشكل عام. وماعنده من خصائص وسمات شخصية ومن مواهب وقابليات فطرية بشكل خاص مما يكون له أبعد الأثر في تكوين شخصية له، تلازمه طيلة حياته، يتميز بها بشكل منفرد، والتي يُعرف بها بين سائر أفراد البشر، رغم مابين جميع الأفراد من صفات مشتركة تجمع بينهم جميعاً، ولذا كانت

هناك دعوة عامة، بوجوب العناية الفائقة بالأطفال، وإيلائهم العناية اللازمة، لاكتشاف ما عند كلٍ منهم من خصائص ومزايا فردية. ومواهب بشكل سليم، يعمل على تعزيز هذه الخصائص والقدرات ونضجها. ومن هنا كان علينا أن لانستهين بما عند الطفل من قدرات بصرف النظر عن نوع هذه القدرات، وعن المستوى الذي هي فيه، وبخاصة قدرته على التعلّم الذاتي، وما عنده من قدرة على الاستكشاف وحب الاستطلاع، لكل ما تقع عليه حواسه في البيئة التي يعيش فيها، وكذلك مدى تأثُّرِه بهذه البيئة، ومدى أثره عليها، ومدى أثر من يعيش معهم ويختلط بهم وبخاصة الكبار منهم ومدى مراعاتهم لهم، والأخذ بيدهم نحو النمو والتطور والتفاعل، وكذلك مدى اهتمامهم به، وإقبالهم عليه، ونوع العلاقة التي تربط بينهم، وأثر هذه العلاقة على مدى تجاوبه معهم، وإقبالهم عليهم بما يزيد من تفاعله معهم، أو إبطاء هذا التفاعل أو إضعافه، ومدى مساعدتهم له على إبراز كيانه، وبناء شخصية له مستقلة، وهوية مميزة.

ولاشك أن نظرتنا للطفل، والفكرة التي نحملها عنه وعن قدراته لها أثرها البالغ في تحديد الاسلوب الذي نتعامل به معه، وفي السياسة التي نسير عليها في تربيته ورعايته، حتى نصبح في كل ذلك عوناً له، نأخذ بيده، وليس عوناً عليه، نمسك بها فنكفّهُ عن العمل، وقد يرجع ذلك كله إلى مدى فهمنا للطفل، ووقوفنا على ما عنده من صفات ومزايا، ومايتمتع به من خصائص فردية. ومدى مايحتاجه من متطلبات، والتعرف على ميوله وهواياته، ونقف على ما عنده من مزايا إيجابية نعمل على تعزيزها ودفعها إلى الأمام نحو النمو المضطرد كما نقف على ما عنده من مزايا سلبية نعمل على إضعافها والتغلب عليها.

إننا نحسن صنعاً إذا ما بدأنا مع أطفالنا في رعايتهم، وإقامة علاقتنا معهم بداية حسنة وسليمة وبخاصة في أول عهدهم بالحياة، والتعرف عليها، والتكيف معها، فذلك ما لا يقدر بثمن بالنسبة لنا.

إذا ما أردنا لهم أن ينشأوا نشأة صالحة وبخاصة إذا ما وصلوا مرحلة النضج والبلوغ ليستمتعوا بحياتهم ويشعروا بأهمية هذه الحياة ودورهم فيها باعتباره دوراً له أثره وفاعليته.

لقد تناولت الأبحاث هذه الأيام – وبشكل ملفت للنظر – مرحلة الطفولة المبكرة ونمو

الصغار وتطورهم وأثرها على حياتهم في المستقبل ورسم مسارها فيما بعد، وقد اتفقت هذه الأبحاث جميعاً على أن الأطفال وعلى اختلاف أعمارهم ومستوياتهم يفيدون من التربية المبكرة – وإن كانت هذه الإفادة بشكل متفاوت – حتى وإن كانوا من ذوي الاحتياجات الخاصة أو المحرومين الأمر الذي يشجعنا على تبنّي مثل هذا البرنامج التربوي بشكل مبكّر، وحتى منذ الولادة فالطفل في أول عهده بالحياة حين يكون مولوداً حديثاً، يمكنه أن يستجيب ويميز بين أنواع من المثيرات السّمعية والبصرية من خلال نُضجه البيولوجي الذي يوفر الفرصة لأجهزة الجسم المختلفة لتقوم بوظائفها بكفاية واقتدار.

إن سلوك الطفل يتأثر بنضج جهازه العصبي، واستجابته للمؤثرات الخارجية والتي قد تكون بطيئة أولاً، وبتنوعها ثانياً، وما يبديه الطفل نفسه نحوها من ردود فعل أولاً، ومن ملحوظات حولها ثانياً، ورأيه فيها يتأثر إلى حدٍ كبير بمدى اهتمامه بها ومدى استجابتها لاهتماماته وميوله الخاصة.

وقد اعتقد معظم علماء النفس فيما مضى أن الطفل يتبع في نموه خطين أساسين ومتلازمين وهما إتقانه للمهارات الحركية أولاً، وعملية النضج في مختلف أجهزة جسمه ثانياً أما نموه العقلي فيحتاج في نظرهم إلى الخبرة والتجربة، إلا أن البحوث الحديثة أظهرت أن عملية النضج الحسي تلعب دوراً أساسياً في نموه المعرفي الذي ينمو ويبرز بشكل ظاهر ومنظم بفعل البيئة التي يعيش فيها ويتأثر بها إلى حد بعيد، في الوقت الذي يرى فيه سيجموند فرويد، أن مراحل النمو الجسمي ونضجه لها اليد الطولى لما يكتسبه الطفل من خبرات شخصية سواء أتغذى من حليب أمه، أم من غيرها، وسواء ألقي منها الود والحنان، أم لم يلقه، فالنمو عنده يأخذ مساره الطبيعي في الحالتين، وبالطريقة نفسها.

أما اليوم فيرى (جيروم كاجان) أن أية موهبة أو قدرة، لن يكتب لها الظهور ما لم يتوافر لها البيئة الصالحة لنموها، واضطراد هذا النمو، وتفعيله، ويجمع الباحثون على أننا بحاجة إلى اكتشاف أساليب فاعلة للإفادة من السنوات الأولى من حياة الطفل، باعتبارها سنوات فريدة من نوعها في حياته.

لقد اختلفت في زمننا هذا نظرتنا للصغار، والفكرة التي تشكلت في أذهاننا عنهم بفعل